كلمة البروفسور سليم دكّاش اليسوعيّ، رئيس جامعة القدّيس يوسف في بيروت، حول ندوة عن كتاب "طرابلس في عيون أبنائها والجوار" من تنظيم حرم لبنان الشمالي في الجامعة بالاشتراك مع مؤسّسة الطوارىء ودار جروس برس ناشرون، وذلك يوم الجعة الواقع فيه ٩ حزيران ٢٠٢٣، الساعة الخامسة من ب.ظ. في قاعة محاضرات فرانسوا باسيل، في حرم الابتكار والرياضة.

تحيّة لكم جميعًا في هذه الأمسية تأخذ فيها مدينتكم ومدينتي طرابلس كلّ المكان من بيروت، العاصمة الأولى تستقبل في حضنها العاصمة الثانية طرابلس الفيحاء، واليوم بيروت محظوظة بأن تستقبل زميلتها الساحرة بعطرها وبأعيانها فتكبر بيروت ويزداد وعيها لذاتها ولرسالتها الخاصّة، وتشعر بأنّها موجودة وشخصيّتها قويّة بقوّة شخصيّة المدينة التي تستضيفها: طرابلس.

أهلاً وسهلاً بكم في الجامعة اليسوعيّة في بيروت، والجامعة هي واحدة في الشمال وفي بيروت، تستقبل اليوم ها هنا أهل طرابلس وأصدقاءها في كلّ مكان. نحتفل معًا بصدور كتاب طرابلس بعيون أبنائها والجوار، الصادر عن دار جروس برس ناشرون، تحفةً من الذكريات العذبة في كثير من الصفحات والمرّة في القليل منها.

أهلاً وسهلاً لمن كان في أساس هذه المبادرة المعطاء، يُشكر من القلب عليها، أولئك الذين أداروا هذا العمل، فالنوع الأدبي الذي أفرد للنبذة التاريخيّة الوجدانيّة المكان الأرحب والذي أعطى المجال لأكثر من ماية نبذة ومقالة وكلمة ومقابلة

ورحلة... وهذا كلّه بحاجة إلى برنامج عمل واسع وسع قلب طرابلس والجوار لكي تتحقّق الأهداف وليصبح لطرابلس كتابها.

وأحيي من القلب ومن الفكر أيضًا العلمين اللذين قلبا الأرض والسموات للإعداد لهذا الحدث الجامع اليوم، فزارتا خيرة الناس وحملت إليهم الدعوة وكانتا خير محاميتين داعيتين لهذا العمل الجبّار ولهذا اللقاء حول طرابلس، عنيت بكلامي الأستاذة مايا حبيب رئيسة مؤسّسة الطوارىء والأستاذة المديرة فاديا علم الجميّل.

لن أغوص في طيّات هذا الكتاب الذي فيه الكثير من الصفحات عن تاريخ طرابلس العلم والثقافة والمعارف والموسيقى الشرقيّة والكتاب بمختلف المضامين من المعجم إلى الكتاب المدرسي إلى الإسلاميّات والمسيحيّات، وإلى التاريخ والنبات والمدرسة والجامعة والشاطئ ومرفأ الصيّادين والجوامع والكنائس والساحات والمنارات وكلّه يصبّ في خدمة المواطن الطرابلسي من منظور الوطن. فلا مفاجأة أن تكون طرابلس رفعت صوتها الثوري تقول بالتغيير والإصلاح والعدل ورفع الظلمات.

وطرابلس، في العودة إلى الكتاب المرجع، أسمّيه كتاب الوصايا، هي ساحة سياسيّة لها منتدياتها وجمعيّاتها وشخصيّاتها وأحزابها وتيّاراتها وشخصيّاتها. في واحد من النصوص قرأت أن التاريخ يروي عن بيروت أنّ الخطر الكامن فيها يأتي من العداء بين البسطة والأشرفيّة وإنّ التعدّديّة فيها هامشيّة وليس حركيّة في حين أن طرابلس عندما يُفكَّر فيها من ناحية الأديان نَجدُ أنّها كانت مختبرًا شبه نموذجي للتفاعل

النوعي بين الجماعات بالرغم من اختلافاتها. هذه التعدّدية الناجحة كانت ملازمة لعهد الازدهار والاستقرار، في حين أنّ الأمور انقلبت رأسًا على عقب وازدادت العصبيّات، والسبب هو الإهمال وانعدام البرنامج المتكامل للتنمية، وعُمل على تنمية بيروت وتحسين بناها وطرابلس لم تنل حظوة من مشاريع التنمية، والباطن الذي لم تعمل الدولة على إصلاحه والذي هو الفساد السياسي هو نفسه في المدينتين ووصلنا اليوم إلى نتيجة واحدة.

قرأنا وكم قرأنا أنّ طرابلس ليست سعيدة، يقول بعض أبنائها إنّها تذوي ودخلت في حالة الإنذار البطيء، أصبحت مكانًا للسكن، يسعى أهلها للاستمرار على قيد الحياة، بلا أحلام جميلة ولا خيال جامح وبلا تخطيط للمستقبل، فيغادر الكثير المدينة، إمّا جوًّا أو بحرًا أو برًّا للعمل في مكان آخر وهكذا تبقى طرابلس وكأنّها مدعوّة للعزلة وللانغلاق على الذات.

أمام هذا التصريح، يبدو كتاب طرابلس في عيون أبنائها والجوار وكأنّه صرخة تاريخيّة ونابعة من تاريخ المدينة في وجه من يريد أن يلغي الحلم بأنّ للمدينة حقّها في العيش بكرامة وأن تستعيد نسيجها القوي والمزدهر والعطر التعدّدي. صحيح أن بعض الأمور وربّما البديهيّة تصبح شيئًا من التاريخ وللتاريخ! إلاّ أنّه عندما يقول لنا التاريخ أنّ صفحات عديدة من المدينة كتبها الحبّ والعاطفة والألم والقلق والصداقة، فيكبر

الحلم ويقوى بأن تستعيد أجيال اليوم والغد المبادرة لاستنباط صفحة جديدة للعيش معًا وللبناء معًا والازدهار والنموّ معًا !

يحدوني الأمل أن أسير في طريق الحلم، ونحن هنا في حَرم الجامعة، أنّ في طرابلس وجوارها عشرات لا بل مئات من المئات من المدارس الرسميّة والخاصّة والجامعة اللبنانيّة والجامعات الوطنيّة الأخرى. قاسمها المشترك هو العلم الذي يحدّ من الجهل يبني الكفاءات والقدرات الصالحة لخدمة المجتمع. وإلى العلم قاسم مشترك آخر هو غراسة الأخلاق في النفوس ومنها القِيَم المشتركة على حبّ الوطن والمواطنة. وكتاب طرابلس، كأنّه كتاب عن مدرستها القديمة خصوصًا وعن الحديثة والجامعات التي تعدّدت أسماؤها ومشاربها، فهناك حنين إلى شارع المدارس والفرير والعائلة المقدّسة والرهبان البيض، والوطنيّة، والمدرسة السلطانيّة... وهناك حديث عن المدارس والثانويّات الحديثة العهد ومنها الروضة والإيمان وكانّها لا تغذّي فقط ما هو للدين، بل إنّ ما هو للدين يعود إلى الأكثر والأعمق إلى الرابطة الاجتماعيّة والوطنيّة التي تشدّ الواحد إلى الآخر بالعلم والإيمان والقِيَم المشتركة والسعي إلى حلّ كلّ معضلة ومشكلة بالعلم والحوار. فعلى مسارح هذه المؤسّسات التربويّة، يتعلّم الواحد الخطاب بل أيضًا الحوار وبأنّ الحياة هي سيرة مشتركة فيها الفرح والألم نحملهما معًا بالصبر والرجاء.

وإلى المدرسة هناك دَور ريادي للجامعة وقد أصبحت طرابلس وجوارها مدينة جامعيّة مشكّلة من العديد من مؤسّسات التعليم العالي لا بدّ من أن لا تتأخّر لتعمل معًا من أجل نهضة المدينة واستعادة دورها.

في الختام استرجع سؤالاً بدأ به الناشر كتابه:

"سأل أحدهم: لماذا لا تعدّ كتابًا عن طرابلس الزمن الجميل، طرابلس التي ضمّتنا في عزّ صبانا؟ ألا يستحق أبناؤنا وأحفادنا أن يعرفوا شيئًا عن خصائص المدينة ليتعلّقوا بها!" وكان الكتاب الرائع الذي بين أيدينا.

أجمل ما نهديه للأجيال هو القدرة على أن يكون عندهم حلمٌ لذواتهم وبلدهم ومدينتهم. وهكذا تبقى الشعلة متّقدة ومنيرة، أملاً بمستقبل باهر للأجيال الجديدة.

عشتم،

عاشت طرابلس،

عاش لبنان.